الافْتِتَاحِيَّة

أوثان الحضارة الغربيّة

تتَّفق معظم الدّراسات التي عُنِيَت بتاريخ الإنسان والحضارة والدِّين، وتلك التي اهتمَّت بتطوُّر الثّقافة وممارساتها وأشكال التّعبير عنها عبر العصور، مثل الأنتروبولوجيا أو علم الأناسة وعلم الاجتماع، أنَّ الدِّين كان أحد أهمّ أُسس ومكوّنات الحضارات التي تَشكَّلت عبر التّاريخ، بغضِّ النّظر عن طبيعة هذا الدِّين، سواء أكان توحيديًّا أم وثنيًّا أم مجموعة طقوس وممارسات مِنَ السّحر أو الخرافات.

وبما أنَّ الدِّين هو منظومة مِنَ التّفكير والاعتقاد والقِيَم، ومِنْ أنماط السّلوك ومِنَ الممارسات الاجتماعيّة والفرديّة، فقد اتَّجه الاهتمام في تلك الدّراسات إلى التّعرُّفِ على مدى تأثيرات الدِّين على ممارسات النّاس الثّقافيّة والفنِّيَّة، وعلى علاقاتهم الاجتماعيّة، وعلى رؤيتهم للكون ولِذاتهم ولعلاقاتهم مع الآخرين.

إنَّ الدِّين هو الجانب الاعتقاديّ الذي يُحدِّد طريقتنا في التّفكير ثُمَّ في التّصرُّف والسّلوك، وهو الذي سيؤثِّر على ما قد يُنتجه أفراد المجتمع مِن فنون أو إبداعات في سُبُلِ العيش أو العمارة والسَّكن، أو التّنقُّل، أو الحماية مِنَ الطّبيعة وتحوُّلاتها، أو من حيواناتها المفترسة.

فمِنَ الرّسوم الفرعونيّة، على سبيل المثال، يمكن التّعرُّف على طبيعة الحياة الاجتماعيّة في تلك الحضارة، ومِن شكلِ الأضرحة وهندستها، ومن نظام التّحنيط الذي لم يُكشَف سرّه لغاية اليوم وما يوضع من أوانٍ إلى جانبِ الميِّت، يمكن التّأكُّد مِن اعتقاد الفراعنة بالحياة بعد الموت. ومِنَ الفنّ الإسلاميّ ومركزيّة الدّائرة في هذا الفنّ، يمكن أن نتبيَّن صلته بالتّوحيد، ومِنَ الهندسة الإسلاميّة مراعاتها الضّوابط الشّرعيَّة في العلاقات الاجتماعيّة.

وتختلف مستويات الأنموذج الحضاريّ قياسًا إلى طبيعة الاعتقاد في هذا الأنموذج الذي إمَّا أنْ يكون ساميًا ومتعاليًا وإلهيًّا فيكون توحيديًّا سماويًّا، وينعكس على باقي أنماط الحياة والسّلوك، وإمَّا أن يكون خرافيًّا أو وثنيًّا يسعى إلى استرضاء الآلهة التي صنعها الإنسان بنفسه، أو تلك التي عبدها من مظاهر الطّبيعة. لكن في الحالات كلّها، يبقى الجانب الاعتقاديّ، الوثنيّ أو الإلهيّ، أحد أهمّ المؤشّرات على مستوى الحضارة التي أوجدها الإنسان في عصر من العصور، وعلى طبيعتها وتكاملها. فإمَّا أن تكون حضارة إنسانيّة يكون الدِّين فيها في خدمة الإنسان وكرامته وُرقِيِّه وتَساميه، وإمَّا أنْ تكون حضارة وثنيَّة يكون الإنسان فيها في خدمة الأوثان وتقديسها، وإمَّا أنْ تكون حضارة الخرافات والسّحر والتّنجيم... وهذا هو أحد أهمّ مقاييس الفروقات بين الحضارات.

إنَّ المفارقة في هذه العلاقة بين الدِّين والحضارة هي أنَّ الحضارة الغربيّة الحديثة التي قدَّمت نفسها للعالَم أنّها الحضارة الأرقى والأفضل، عَدَّت انفصالها عن الدِّين سببًا لتقدُّمها وتفوُّقها على باقي العالم. وهذه المقولة أَغْوَت كثيرًا مِنَ الباحثين لربط التّقدُّم بالانفصال عن الدِّين والقطيعة المعرفيّة معه. لكن قد يكون الواقع خلاف ذلك.

لا شكَّ في أنَّ حضارة الغرب الحديث لم تستلهم المسيحيّة في مسيرة تقدُّمها، ولم تكن تعاليم السّماء مِن مكوّناتها، بل يمكن القول: إنَّ هذه الحضارة إنَّما صُنِعَت بمعزل عن المسيحيّة، وبالتّنكُّر لتعاليمها، وحتّى بالصّدام معها. حتَّى أنَّ النّهضة التي تحقَّقت لأوروبّا أُطلِقَ عليها مصطلح الأنوار أو «الرّينسانس» (Renaissance)، وكان المقصود منه القطيعة مع كلّ ما هو دينيّ، ومع كلّ ما له صلة بالكنيسة أو ارتباط بها، وأنَّ هذه القطيعة بمنزلة نهضة وخروج من ظلمات الدِّين والكنيسة إلى أنوار العقل والعلم واللّادين.

لم ينشأ هذا المسار الحضاريّ الغربيّ بعيدًا عنَ الدِّين وبالعداء له من فراغ، فقد ساهم مُفكِّرون وفلاسفة عبر عقود في تهميش الدِّين، وفي تبخيس أهمِّيَّته، وعَدِّه مرحلة بدائيّة مِنَ التّفكير الإنسانيّ. وساهمت ثورات مثل الثّورة الفرنسيّة في التّصدِّي له وإقصائه عن الحياة وعن المؤسّسات الاجتماعيّة.

وعلى سبيل المثال، كان «دوركهايم» (Émile Durkheim)، أحد أبرز مؤسِّسي علم الاجتماع الغربيّ، يعتقد أنَّ تأثير الدِّين سينحسر مع تطوُّر المجتمعات الحديثة، وسيحلّ مكانه التّفكير العلميّ. ويشترك «دوركهايم» مع «ماركس» (Karl Marx) في الرَّأي بأنَّ الدِّين التّقليديّ؛ أي الإيمان بآلهة أو قوى عُلويّة، على وشك الاختفاء، ويقول في إحدى عباراته المشهورة: «لقد ماتت الآلهة القديمة». ويشير إلى أنَّ الشّعائر البديلة للشّعائر الدِّينيّة ستدور حول القِيَم الإنسانيّة والسّياسيّة، مثل الحرِّيَّة والمساواة والتّعاون الاجتماعيّ.

حتَّى أنَّ «ماكس فيبر» (Max Weber) استخدم مصطلح «إبطال السّحر» أو «نزع السّحر» ليصف التّحوُّل في التّفكير العلميّ للمجتمعات الحديثة، بدلًا مِنَ الاعتقاد الذي كان سائدًا بالغيبيّات وبالعالَم الآخر.

وكان «ماركس» و«دوركهايم» و«فيبر» يَرَوْنَ أنَّ سَيْرورة العلمنة وإقصاء الدِّين ستمضي قدمًا في الوقت الذي يصبح فيه النّاس أكثر اعتمادًا على العِلْم والتّقانة في تفسير العالم الاجتماعيّ.

أمَّا «أوغست كونت» (Auguste Comte)، وهو أيضًا من واضعي أُسس علم الاجتماع الغربيّ، فقد زَعَمَ في نظريَّته حول المراحل الثّلاثة أنَّ المسعى البشريّ (أي الغرب) وصل اليوم إلى المرحلة الوضعيّة التي دشّنتها الاكتشافات والانجازات التي حقَّقها «كوبرنيكوس» (Nicolaus Copernicus) و«غاليلو» (Galileo Galilei) و«نيوتن» (Isaac Newton)، والتي اتَّسمت بتطبيق الأساليب العلميّة لدراسة العالَم الاجتماعيّ. في حين كانت المرحلة الأولى (باقي شعوب العالم) هي المرحلة اللَّاهوتيّة التي كان الفكر الإنسانيّ فيها مُسيَّرًا بالأفكار الدّينيّة وبالاعتقاد أنَّ المجتمع ما هو إلَّا تعبير عن إرادة الله، قبل أن ينتقل هذا الفكر إلى المرحلة الثّانية الميتافيزيقيّة التي مهّدت للمرحلة الوضعيّة وللتّفكير العلميّ ولعصر النّهضة الأوروبيّة، بعيدًا عن الغيبيّات وقوى ما فوق الطّبيعة.

وذهب «كونت» إلى التّبشير بما سمَّاه «دين الإنسانيّة» الذي يقوم على

الابتعاد عن الإيمان القطعيّ بالعقيدة والارتكاز على المبادئ العلميّة. وسيكون علم الاجتماع، بالنّسبة إليه، نواة هذا الدّين الجديد.

لقد قطعت الحضارة الغربيّة تدريجيًّا صلتها مع الدّين، وستساهم الأفكار الفلسفيّة، مثل فلسفة «نيتشه» (Friedrich Nietzsche) الذي أعلن بوضوح «موت الله» وفكرة «كارل ماركس» الذي عدّ الدين أفيون الشّعوب، في هذه القطيعة، وفي أنْ يصبح الإنسان ـ بدلًا من الله ـ مرجعيّة الكون والوجود.

أمّا ذروة هذه القطيعة العمليّة والحياتيّة مع الدّين، فكانت مع الثّورة الفرنسيّة عام 1789م، والتي رفعت شعارات العلمانيَّة والحرِّيَّة والمساواة ضِدَّ النّظام الاجتماعيّ القديم. وكانت شديدة الهجوم على الدّين والكنيسة، وعملت على تحويل المجتمع عن المسيحيَّة، وطرد الشّخصيَّات الدّينيَّة من مختلف المؤسَّسات. ثُمَّ مع الثّورة الصّناعيّة، وما أَدَّت إليه من ابتكارات تقنيّة، والتي ستنقل الهُويّة المعرفيّة الغربيّة مِنَ الدِّين وأنظمته وثوابته إلى ما أُطلق عليه التّفكير العلميّ الذي سيصبح بديلًا من المعتقد الدّينيّ والتّفكير الدّينيّ وروابط الإنسان الغيبيّة الإلهيّة. وسيُطلق الغرب «عصر النّهضة» على ما وصل إليه مِن ابتعاد عن الدِّين، وسيسوِّغ به تفرُّده وهَيْمَنَته ودعوته باقي العالَم إلى تبعيَّته وتقليده والانقياد لأنموذجه الحضاريّ.

إنَّ فكرة أنَّ الغرب تخلَّى عن الدِّين في مسيرته الحضاريّة لم تكن صحيحة تماماً. ما فعله الغرب هو أنَّه تخلَّى عن المسيحيّة التي تشكّل دينًا سماويًّا واستبدلها بدين آخر غير سماويّ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «وثنيَّة جديدة»، لا تختلف عن وثنيّات عرفتها شعوب وحضارات عبر التّاريخ قدَّمت خلالها تلك الشّعوب لآلهتها القرابين لاسترضائها وعبادتها.

ما حصل عمليًّا في التّجربة الحضاريّة الغربيّة منذ عصر النّهضة، وما بعد الاكتشافات العلميّة، هو نهاية الإله المعبود في المسيحيّة، ليُستبدَل بآلهة متعدّدة، هي: إِلَه العِلم والتّقنيّة وإِلَه الرّغبات الفرديّة وإِلَه القوّة والتّقدُّم. ولن تختلف هذه الآلهة الجديدة عن الأصنام التي عرفتها الشّعوب «البدائيّة» أو البسيطة في حضارات سابقة أو قديمة.

هكذا كان المسار الذي اتَّبعه الغرب، وما قام به منذ عصر النّهضة إلى اليوم هو مسار تعبُّد لأوثان العلم والقوّة والفردانيّة، بديلًا من تعبّده السّابق في المسيحيّة للغيب أو للآبّ والابن والرّوح القدس. لكنَّ المخيف والكارثيّ في

مسار تعبّده الوثنيّ الحداثيّ الجديد أنَّه سيكون من دون رادعٍ أو خوفٍ من عقاب أو من غضب إلهيّ، كما تشهد على ذلك سياسات توحّشٍ الغرب تُجاه شعوب العالم. وسيستعيد الغرب من جديد «صكوك غفران» الكنيسة التي سيُرغم باقي شعوب العالَم على شرائها بالطّاعة والتّبعيّة لتضمن التحاقها بـ«جنّة» الغرب ومدنيّته وحداثته وتقدُّمه.

وسيندفع الغرب في حضارته الحداثيّة الجديدة، استرضاءً لأوثانه التي صنعها بيديه، إلى تقديم شعوب العالَم قرابين لوثنِ القوّة الذي شرّع له الاحتلال والهيمنة ونهب الثّروات والعنصريّة. وقربانًا لوثنِ الفردانيّة، سيطيح بكلِّ القِيَم والثّوابت التي عرفتها المسيحيّة والمجتمعات الغربيّة عبر قرون، بحيث أصبحت رغبات الفرد وحرِّيّته وشهواته وميوله من دون ضوابط دينيّة أو أخلاقيّة أو اجتماعيّة، وبحيث أصبحت حتّى الأُسرة مِنَ المكوّنات الاجتماعيّة المتحوِّلة والمتغيِّرة التي لا ثوابت لها، والتي يمكن أن تكون لها أشكال مختلفة ومتعدِّدة، بعدما غابت عنها ثوابت الدِّين ومعاييره الأخلاقيّة والاجتماعيّة. لقد باتت الفردانيّة بمنزلة الإله الذي يجب أن يخضع لمشيئته كلّ شيء.

أمَّا تلبية لوثن العلم، فسيضحّي الغرب على محرابه بأيّ مشاعر إنسانيّة، وسيمنع بسببه أيّ معرفة دينيّة غير تجريبيّة، وستصبح الفيزياء والكيمياء وما يجري في المختبرات مصادر المعرفة الوحيدة والحقيقيّة. لقد باتَ العلم بلا مشاعر إنسانيّة، وبلا أحاسيس أو قِيَم أخلاقيّة؛ تحوَّلَ العِلم إلى خدمةِ وثنِ القوّة والسّيطرة.

لم تأخذ هذه الأوثان الحديثة الغرب إلى الأمان النّفسيّ، وإلى التّماسك الاجتماعيّ، كما فعلت الأديان عبر تاريخ الحضارات؛ بل أدخلت المجتمع الغربيّ في حال مِنَ الضّيق والقلق، وباتت حضارة الغرب، كما يقول المؤرِّخ الأميركيّ «موريس برمان» (Morris Berman): «في أزمة وفي طريق الهبوط»، وإنّ «جذور هذه الأزمة ليست سوء سياسة اقتصاديّة أو اجتماعيّة فحسب؛ بل هي ذات بُعدٍ معرفيّ إبستيمولوجيّ، وهي أزمة «معنى» عائدة للثّورة العلميّة الحاصلة منذ القرن السّادس عشر».

كما أنتجت حداثة الغرب موجات عنصريّة وإبادة وفاشيّة ونازيّة، وحروبًا أَوْدَت بحياةِ عشرات الملايين مِنَ البشر في الصّراع والتّنافس من أجلِ السّيطرة والهيمنة. ولم تستطع هذه الحضارة نفسها أن تخفي وجهها البشع في التّوسُّعِ والاحتلال الذي

انقرضت بسببه شعوب وأعراق بكاملها، ودمّرت ثقافات إنسانيّة ومحتها عن وجه الأرض.

وعندما تكون هذه الأزمة نتاج بُعدٍ إبستيمولوجيّ معرفيّ، فهذا يعني أنَّها أزمة طريقة في التّفكير في الوجود وفي الإله، وفي النّفس وفي الغيب وفي التّجريب وفي العقل وفي التّخلِّي في نهاية المطاف عن كلّ ما يربط الإنسان بعالم السّماء.

هذه الأزمة «تسبَّبت في تعاسة الإنسان»، كما يقول المُفكِّر «ألفن توفلر» (Alvin Toffler): «لأنَّ كلّ الجذور القديمة الثّابتة، مثل الدِّين والأمّة والمجتمع والأسرة والمهنة، باتت تهتزّ بقوّة تحت التّأثير العاصف لتفشِّي ثقافة الاستهلاك المادِّيّة التي وَلَّدت بدورها ثقافة الاستبداليّة».

لم تترك هذه الثّقافة أيّ شيء ثابت، فعادةُ «التّخلّص مِنَ الأشياء»، بما فيها العلاقات الزّوجيّة والأُسريّة، أَغرقت الإنسان في حالٍ مِن «عدم الرّضى»، وهَوَتْ به وبالمجتمع إلى القلق واللّايقين. هكذا أُضيف وثن الاستهلاك وعدم الرّضى إلى أوثان العلم والقوّة والفردانيّة، لتصنع هذه الأوثان معًا حضارة الغرب الحديثة.

طلال عتريسي